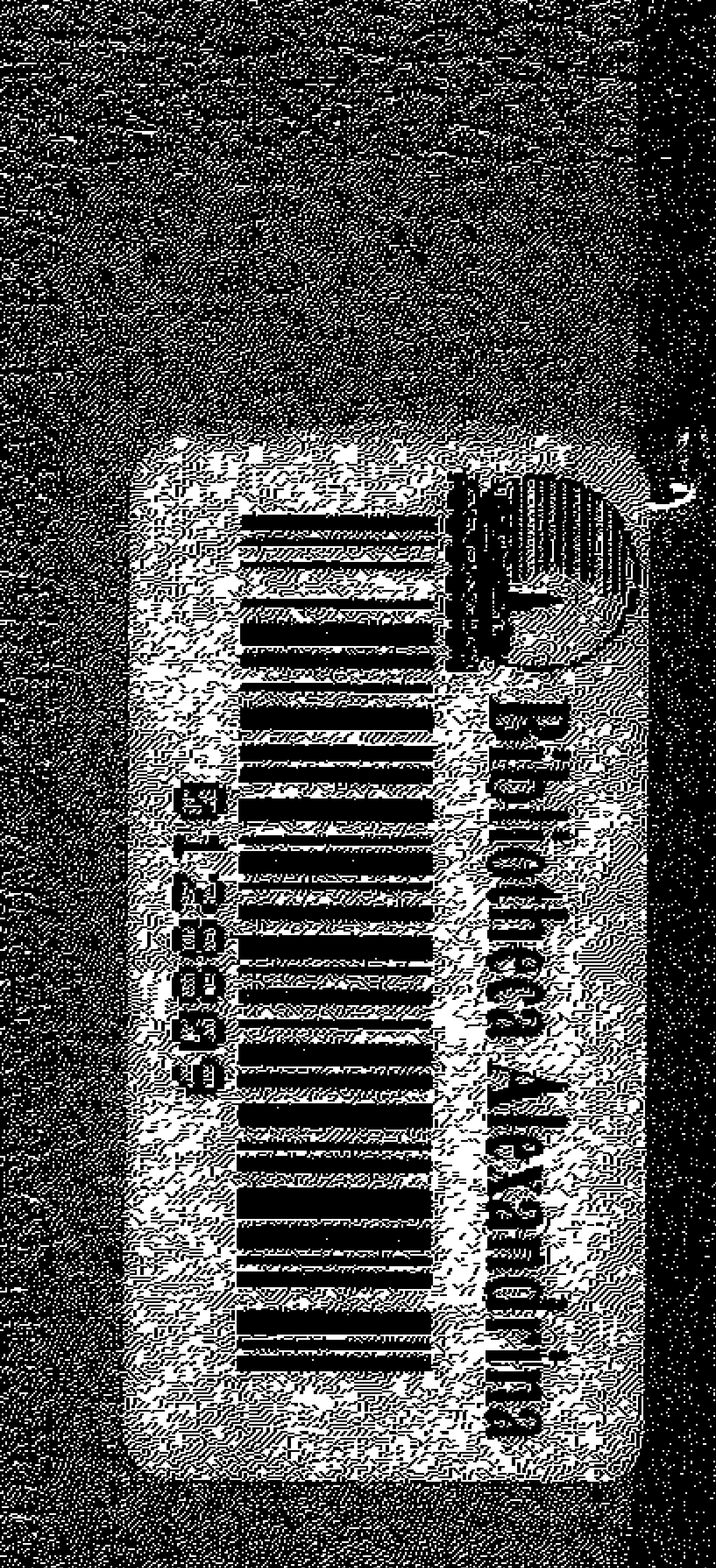
حجة الإسلام



حقيقة الاسلام ومحاسنه

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ

ابراهيم الجبالى

عضو اللجنة العلمية لهيئة كبار العلماء

المؤلفة لحماية الدين والدعوة الى سبيل الله

المطبعة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة

الدين

الدين : هو التعليم الإلهى ، والإرشاد السماوى ، يتنزّل رحمة من الله بعباده ، فيرشدهم بعد الغواية ، ويبعدهم من الضلالة ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويردعهم عما يضرهم ، ويوجّههم إلى ما فيه نفعهم .

الدين : هو القوة التى أمدّ الله بها الناس ، فعدّلت من مزاجهم ، وكبحت من طغيانهم ، وردّت غوائل بعضهم عن بعض .

جعلت للقوى حدودا لا ينبغى أن يتجاوزها ، وحفزت النفوس الواهنة الضعيفة إلى أن تستخدم قواها التى بثّت فيها ، ونبهت الفكر الخامل إلى اجتناء الثمار التى مكّنه الخالق منها ، والتى سخرها له ولمصلحته . فالدين ينبّه الفكر ، وينظّم الإرادة ، ويصدّ العدوان ، ويقف الطغيان . فهو الرحمة العظمى لبنى الإنسان

ولما كان الدين تعليما وإرشادا ، وتربية وتهذيبا ، وكان الإنسان فى مجموعه كالإنسان فى مفرده : قد نشأ على الفطرة

الأولى ، حتى تداولته التجارب ، واكتنفته التصاريف ، واختلفت عليه الأحوال، وكل حال منها يغرس في نفسه حكما ينتفع به ، ويعلمه أمرا كان خفيا عنه ، كالطفل يولد لايعلم شيئا ، فلا يزال عرضة للحوادث ، وممرًّا للطوارئ المختلفة ، حتى يستكمل رشده ، ويبلغ أشده ، وهو فى كل طور مستعد لدرجة من التعليم والتهذيب والتربية

كذلك كان الإنسان فى مجموعه له أطوار بحسب ما استعد له من المراتب فى القبول والكمال ، فيليق به فى كل حال ما لا يليق به فى غيرها

فاقتضت حكمة العليم الحكيم أن يمد النوع الانسانى بضروب من التربية والتعليم قد استعد لها وصلحت له ، حتى يتم نضجه ، ويكمل استعداده ، فيعطيه التعليم النهائى الكامل ، والقانون المنظّم العادل ، الذى يصلح لكل أمة فى كل زمان ومكان ، فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، من بداوة وحضارة : ذلك هو الدين الاسلامى

الاسلام :

قال الله تعالى: (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ) وقال جل شأنه : (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ) وقال مخاطباً النبي عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) وقال فى خطابه أيضاً : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

ولقد تجلّت هذه الرحمة الإلهية فى الدين الإسلامي بثلاثة مظاهر : بوضوح تعليمه ، ومتانة براهينه ، وإنتاج فوائده وثماره

أما وضوح تعليمه ، فتراه فى العقائد ، والعبادات ، والمعاملات . فهو فى باب العقائد لم يكلف الإنسان عنتاً ، ولم يرهقه اعتقاد ما لا يسوغه عقله . فما طلب منه أكثر مما دلّ عليه العقل السليم ، والنظر الصحيح فى الدليل القويم — ففي العقائد الالهية كلّفه أن يعتقد أن لهذا العالم موجداً ، عالما ، حكيما

كامل القدرة والإرادة، منزها عن سمات النقص، لا يشاركه في الملك والتدبير والتصرف شيء ، ولا يشبهه شيء ، ولا يعزب عن علمه شيء ، ولا يخرج عن قدرته وتصرفه شيء ، وأنه المنفرد بالكمال، المتوحد بالجلال .

ولم يقسر النفوس على هذا الاعتقاد الصحيح ، بل وجهها الى النظر في أنفسها وما يحيط بها ، وبسط لها كيف تستفيد من ذلك النظر حتى تعلم العلم اليقيني من نفسها أن ما دعاها إلى اعتقاده قد أقام لها الدليل عليه ، وهداها إلى الاستيقان به والتثبت منه. ولو أنها نظرت هذا النظر الصحيح منفردة، لاهتدت اليه من تلقاء نفسها ، وكلما ازدادت نظرا واعتبارا . ازدادت نورا واستبصارا .

وجهها الى النظر في ملكوت السموات والأرض .

وجهها الى التفكر في نفسها وخلقتها

علمها كيف تفكر في النبات والحيوان والرياح والسحاب ، وما ينشأ عن ذلك وما فيه من النظام ، حتى استخرج من قرارة النفوس العلم اليقيني واعتقادها الجازم

أن هذه المظاهر الكونية التي ربط بعضها ببعض ، وأخذ كل منها في النظام الكوني العام محلاً ليس له أن يتجاوزه. فربطت الأجزاء على تباعدها ، واتصلت مع افتراقها ، واتحدت في تكوين نظام كامل على عظيم تباينها . كل أولئك لا يمكن في نظر العقل أن يصدر إلا عن إرادة واحدة ، وتدبير محكم ، وعلم شامل ، ويدل جزماً على أن المتصرف فيها يجب أن يكون واسع السلطان، نافذ الحكم ، مبسوط القدرة ، سالما من المعارضة والمضادة ، والمشاركة ، والنظير : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

فلو كان هناك قوة تضاهي قوته ونفوذ يعارض نفوذه لاصطدمت الارادات ، وفسدت الأرض والسموات : (إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

وما وراء ذلك من صفات الكمال التي وصف بها نفسه تجدها فرعا عن هذه الصفات، تُعلم بعلمها ، وتثبت بثبوتها ، أو هي من الكمال الذي لا يأبى العقل أن يتصل بالجلال الإلهي . فأرشد المؤمنين إليه على لسان أنبيائه ورسله

هذا فى الاعتقاد فى الإلهيات

وأما الاعتقاد فى أمر النبوات، فهو من السهولة فى الفهم والقرب إلى الذهن بحيث لا يتعثر امرؤ فى اعتقاد أنه من الممكنات السائغات، كما قال جل وعلا: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) ؟

صدق الله العظيم، ما فى هذا من عجب، ولا يعلو تناوله على النظر! وقد ألف الناس فى كل أوان أن يكون منهم لهم مرشدون، بتفاوت العقل ورجحان الرأى، فَلِمَ لا يكون لهم منهم نذير وبشير، بعدد يعدّ الله به من اصطفاه من عباده، ومزية يختصه بها، والله أعلم حيث يجعل رسالته؟

نعم: منصب النبوة منصب خطير، ومقام كبير، يتمنى كل واحد أن يكون له منه نصيب. فلا يبعد أن يدعيه من ليس أهلا له

فاقتضت الحكمة العظمى أن يتميز الرسول عن غيره بمظهر من مظاهر القدرة الإلهية، لا يدانيه فيه غيره،

ولا يساويه أحد من الخلائق أجمعين ، فيظهر على يده من المعجزات ما يشهد بصدقه ، ولا يكون مستندا إلى أسباب عادية وقوانين كونية يستطيعها كل من باشر أسبابها، بل هى بمحض القدرة الإلهية والتصرف الربانى ، فتدلّ على صدق من أيّده الله بها . ثم يحفّ الله هذا الفريق الذى اصطفاه لأن تكون الهداية على يديه بلطف منه ، فيعصمه من الكذب والخيانة ، ومخالفة ما جاء به عن ربه ، ويجعل له فى النفوس من المهابة والاحترام ما لا يكون معه لنفس عذر فى الاستنكاف من اتباعه

فهم عباد من عباد الله : أكرمهم برسالته، وأيّدهم بآياته، وعصمهم من مخالفة أمره ، وجعلهم القدوة الحسنة والمثل الصالح ، حتى قامت بهم الحجة، واستنار بهم طريق الهدى .

يجب لهم أن يكونوا صادقين ، أمناء ، معصومين ، سالمين من المنفرات ، مؤيدين بالمعجزات والآيات البينات. هذا المعنى لاعسر فيه ولاعنت، ولا إشكال فى فهمه ولا صعوبة

هذا هو وضوح تعليمه فى العقائد الإلهية أو النبوية

وأما العبادات التي دعا اليها، فإن الناظر كلما ازداد تأملا فيها، تجلى له من باهر حكمها، وعظيم تهذيبها للنفوس، وترقيتها لها، وتنقيتها من الأضرار والأوضار، مايملأ نفسه يقينا بأنها رحمة مهداة من رب العالمين

ولقد جمع أصولَ العبادات قوله صلى الله عليه وسلم: (بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا)

الصلاة:

فانظر إلى الصلاة وما فيها من شرف الوقوف بين يدى أحكم الحاكمين: يناجيه بكلامه القديم، ويثنى عليه بما هو أهله، وهو يعلم أنه سميع له، وبصير به. ويخصه بالعبادة: فلا يخضع لغيره، ولا يطلب المعونة إلا منه، ويستلهمه الهداية والتوفيق، حتى يكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن يبعده عمن غضب عليهم وأضلهم فهم لا يهتدون .

كل ذلك وهو مقبل على ربه ، وربّه راض عن عمله ، إذ كان امتثالاً لأمره

إن هذا المقام يسمو بالنفس إلى أعلى ذروة العز ، ويحررها من ربقة المذلة والخنوع لمن لا يستحق عليها أكثر من المعاملة بالحسنى والمساواة والمعادلة فى الحقوق والواجبات . فاذا شعر بذلك الجلال وهذه العزة ، فركع تعظيما لخالقه ، ثم انتهض له قائما مرفوع الرأس ، ثم خرّ ساجدا شاكرا لسيده أن لم يجعل عليه حق العبودية لغيره ، فقد وضع نفسه فى المنزلة التى تليق بها ، من : الخضوع لخالقها وحده ، والاعتزاز بنعمته ، والترفع عن أن تذل بالعبادة لأحد سواه ، فيدعوه ذلك إلى امتثال أوامره واجتناب منهياته : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)

وإذا رجعت بالنظر قليلاً إلى ما ينبغى أن يتحلى به العبد ليتمّ استعداده لهذا الموقف الجليل ، وجدته قد طلب منه أن يكون نظيفا طاهرا ، فيزيل عن بدنه وثوبه ومكان عبادته ما يكون قد أصاب ذلك من النجاسات ، ويغسل جميع

بدنه أو وجهه وأطرافه ، حتى يدخل تلك العبادة وهو أهل لشرف الدخول فيها : طاهر ، نقى ، مستور، متجمل

الزكاة :

ثم انظر إلى الزكاة وما تضمنته من بثّ روح الرحمة بين الناس ، وعطف بعضهم على بعض ، وتعاونهم فى الحياة بما لا ضرر فيه لأحد منهم

تجد هذا الركن من أركان الإسلام من أيمن ما شرع الله لعباده : فهو المستلّ لضغائن النفوس وأحقادها ، المقرب بين القلوب، والمقوى للروابط بين طبقات الناس ، بل هو وحده الذى يحلّ أعظم مشكلة عالمية ظهرت فى هذا الأوان ، وهى مشكلة (الشيوعية) الممقوتة

الزكاة : جزء قليل يخرجه الغنى من ماله الكثير ، فيجبر به قلوباً كسيرة، ويسدّ حاجة مَن ضعف عن القيام بحاجة نفسه، ويرفّه عن نفوس تعسة ، فتكون رسول سلام، وداعى محبة وتقوية لرابطة الأمة ، حتى تصير بها كتلة واحدة ، كالبنيان

المرصوص يشد بعضه بعضا ، بل كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر

الزكاة : تجعل الأمة كالأسرة الواحدة متضامة متساندة ، وتغرس في نفوس الجميع حب الخير للجميع ، فتعطيها من قوة التماسك ما يشد أزرها ، ويضمن فى جميع الأحوال نصرها . وليست مع ذلك فادحة بحيث ترهق من يؤديها أو تعود عليه بالخسار . وماذا يضر مالك المائة مثلا أن يخرج منها اثنين ونصفا ، وهو مقدار نسبة الزكاة فى الغالب ؟!

الصوم :

أما الصوم : فهو مطهّر للأجسام ، مهذّب النفوس قامع للشهوات ، معدّل للأمزجة ، مربٍّ لخلق الأمانة ، إذ لا رقيب عليه فيه غير ربه ، ويقوى الإرادة والعزيمة وخلق الصبر . لا تستغنى الصحة عنه ، ولا بدّ لاعتدال البناء الجسدى منه . يذكّر المرء بنعمة الله عليه ، واحتياجه فى حياته ومقوماتها اليه

يعطف موفور النعمة على فاقدها ، حين يحس حرارة

الجوع وألم المسغبة ، فتلحقه الشفقة على من لا يملك قوته ، ولا يقدر على ما يطعم

فريضة فرضت فى الإسلام ، كما فرضت فى الشرائع السابقة (كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وإنا لنجد بعض الناس يأخذ نفسه بالصوم أو بالحمية اختياراً أياماً معدودات ، ليصل الى تطهير أمعائه من عفونات الأخلاط وتراكم الأغذية ، وليصفي نفسه ويقوى مداركه فكيف وقد أمر به أعلم العالمين وأحكم الحاكمين ؟!

الحج :

الحج : هو خامس أركان الاسلام . وهو وسيلة تعارف الأمة ، وفرصة تلاقيها فى كل عام مرة فى صعيد واحد : تجدّد رابطتها ، وتتعهدشئونها ، وتتبادل منافعها . يُشعر كلّ شعب بأخوته فى الدين لباقى الشعوب ، فيبذل لهم من النصح والمعونة مايقدر عليه ، ويأخذمنهم من المعلومات والمساعدات

ماهو بحاجة اليه ، فيكمل التعاضد ، وتقوى أواصر الاتحاد

ثم هو مذكّر بيوم الحشر، يوم يقوم الناس لرب العالمين، مجردين من زخارف الدنيا وعلائقها ، ليس مع أحدهم إلا عمله وماقام به من شكر أو كفران، والذكرى تنفع المؤمنين . فيزداد المطيع طاعة، ويرعوى العاصى عن عصيانه . وفيه تجديد لذكريات المقربين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، فتستجدّ النفوس رغبة فى التأسى بهم ، والسير على سننهم

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون ذلك بوادٍ غير ذى زرع ، ليكون التوجه اليه خالصا للنسك والعبادة لا لنيل متاع الدنيا وزخرفها

هذه هى الأركان الأساسية للإسلام ، وهى العبادات المطلوبة من كل مسلم متى وجد الى أدائها سبيلا . فاذا أردت اجتلاء الأوامر والنواهي العامة لتعرف مقدار تربيته لنفوس معتنقيه ، فاقرأ قوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ) ، وقوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ

ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِٱللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

فانظر فى الآية الأولى وما جمعت من أسمى الفضائل وأسباب الطمأنينة والمعاملة : فقد بدأت بالأمر بالعدل ، وهو ما ساد فى أمة إلا كان معه راحة القلوب ، وهدوء النفوس ، والأمن على الحقوق . ويتبعه اتساع العمران وسعادة بنى الانسان . ولا يأبى العدل إلا كل منحرف النفس ممقوت بين الناس ، بل لا يستطيع من يأبى العدل أن يجهر بأنه يأباه ، وإنما يحتال لإظهار أن العدل فى جانبه ، متمحلا لذلك بما يقدر عليه من الأسباب والتمويهات .

وأردفه بالأمر بالإحسان ، لأن فيه فضيلة التطول ، وجمع القلوب المتفرقة ، وسدّ طريق الشيطان فى إفساد ذات البين . وكم للإحسان من آثار حسان : فكم فضّ من مشاكل تعاصى على

القضاء والقوة فضها، وقرّب قلوبا باعدت الخصومات بينها. ولقد يعود على المحسن بإحسانه أضعاف ما كان ينتظره بالمقاصة العادلة التي كان ينوي التمسك بها والتشدد فيها. ولكن لا تكاد نفس المحسن تطيب بالإحسان إلا اذا شعر بأنه متفضل متبرع، وأنه لو تمسك بحقه لمكّن منه. وفي هذه الحال يكون للإحسان أثره الصحيح، وتجني ثماره حقًّا

ولقد اختصّ ذوي القربى بالتنصيص، لأنهم أشد تطلعا الى المعروف من ذوي قرباهم، وأقوى طماعية. وربما كان هذا التطلع مدعاة الى الإمساك من الطرف الآخر، لأن الإحسان إذا صور بصورة الاستحقاق عادت النفوس الى الاستمساك بالعدالة، والميل الى المشاحة، كما نشاهده بين الأقارب. فكانوا جديرين بتخصيصهم، والتنصيص على الإحسان إليهم

ويجيء بعد هذا الأمر، النهيُ عن الفحشاء والمنكر والبغي، لأن النفوس التي تكون قد تحلّت بالعدل والإحسان والرحمة، تكون قد استعدّت للتطهر من أدران الفحشاء

والمنكر والبغي . ومن ذا الذى يهون عليه أن يضيع ثمرة إحسانه وقد ذاق لذته ، بتدنيس نفسه ثانية ، بارتكاب الفحشاء والمنكر ؟! ومن ذا الذى يرضى لنفسه الوقوع فى البغى وقد راضها على العدل والإحسان ؟!

وإذا تأملت فى الآية الثانية ، وهى قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) وعرفت أنها جاءت بعد قوله تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) علمت ما فيها من حسن التربية ، واقتران النهى عن بعض ماتميل اليه النفوس من الخبائث، بالامتنان بما أباح لها من الطيبات. ففى ذلك أكبر العون على استبدال الطيب بالخبيث . فمن ذا تطيب نفسه وقد مُكّن من أمرين، أحدهما طيب نافع والآخر خبيث ضار، أن يجنح للضار الخبيث، إلا اذا كان قد فقد قوة التمييز ، أو انحرفت إرادته فلا تميل إلا الى الهاوية ؟!

فصّل فى تضاعيف الشريعة ماحرّم من الفواحش والخبائث، فاذا هى مما يسلب المرء أعز نعم الله عليه ـ فتراها

ما بين شرب خمر تذهب بعقله فتجعله شراً من البهيمة ؛ أو ميسر يضيع ماله فيجعله فى أسوأ حالات الاحتياج ؛ أوزنى يضيع الأنساب ويلحق بالرجل ما لاصلة له به ، فضلا عن تدنيس عرضه ، وانحطاط شرفه ؛ أو قتل عدوان يتلف الأرواح ويولد الشرور المستمرة . فلا تجد محرما حرّم الله على عباده إلا وفيه من المضار ما لا قِبَل للناس باحتماله . ولو كان فى ظاهره شىء من الخير المزيف عاجلا ، فلا يلبث أن يبرز منه الشر الكامن بصورة لاتحتمل

ومن أمثلة ذلك معاملة الربا التى استهان بضررها كثير من الناس ، لقصر نظرهم عما تعقبه من الخسائر الفادحة، فتورطوا فيها ولم يعرفوا سوء مغبتها إلا بعد ما سدّ فى وجههم طريق الخلاص من التردى فى هاويتها العميقة، فيعضّون على أصابع الندم ، ولات ساعة مندم !

الفضائل التى أمر بها الإسلام والرذائل التى نهى عنها :

لقد أمرنا الدين الحنيف بالتراحم والتعاطف فيما بيننا، ونهى عن التدابر والتشاحن ، ونبّهنا إلى ما بيننا من رابطة

يجب تقديسها ، فقال جل وعلا فى سورة الحجرات:
(إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ، بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ . يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

فانظر الى ما بدأ به من تقرير الأخوة بين المؤمنين : يرتب عليها الأمر بالإصلاح بينهم ، معبراً عنهم بعنوان الأخوة ، ترغيباً فى الاصلاح وحثاً عليه ، ثم ردفه بالأمر بتقوى الله ، لينبههم إلى أن هذا من تقوى الله ، ويرتب عليه أنه باب لرجاء الرحمة العامة، تشمل المصلح ومن أصلحه.

ثم ينبههم بعد ذلك إلى اقتلاع أسباب الفساد التى تتسرب إلى الناس وهم فى غفلة من عواقبها ، وهى سخرية بعضهم من بعض . فكم تورّط ساخر فى سخرية يتلهى بها ولا يفطن لعواقبها ، فإذا بها تجرّ إلى شر مستطير وفساد كبير

وما أجمل ما يعلّل النهى عن السخرية بما يعود على المؤمن بمحاسبة نفسه ، والنظر إلى ما فيها من نقص يجب أن يعنى بتكميله ، بدل الخوض فى عيوب غيره والسخرية منه ! وذلك يتجلى فى قوله عز وجل : (عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ)

ثم إرداف هذا بسدّ الباب وإغلاق منافذ الشر ، الضيقة فى مبدئها ، المتسعة فى نهايتها . فنهى عن اللمز ، والتنابز بالألقاب ، وعدّ ذلك فسوقا ممقوتاً لا ينبغى صدوره من مؤمن ، وجعله من الظلم البيّن ، بل جعل عدم التوبة منه مما يقذف به فى زمرة الظالمين ، أو يجعله كأنه هو الحقيق وحده بلقب الظالمين

وبعد ذلك أخذ على النفوس مسالك التردى فى تلك

الهاوية : بإبعادهم عن الاسترسال فى الظنون السيئة ، واتباع الهواجس الشيطانية. كل ذلك وهو ينبّه فيهم قوة الإيمان ، ويرشدهم إلى طريق الانتفاع بإيمانهم ، حيث يبدأ كل أمر من ذلك بالنداء « يأيها الذين آمنوا »

أفترى بعد هذا وضوحاً فى تعليم الإسلام، سواء أكان فى تربية النفوس على التزام العبادة ، أم فى تعويدها الأخلاق الفاضلة ، أم فى تنفيرها من الرذائل الضارة ؟

إنك لا تكاد تجد أمراً بشىء أو نهياً عن شىء إلا وقد اقترن بما يحببه إلى النفوس ، ويرغبها فيه بأجلى بيان وأوضح أسلوب

انظر إلى الترغيب فى الأمر بالمعروف بالحسني ، تجد قوله تعالى : (وَلاَ تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلاَ ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ) وفى نهيه عن إساءة الأدب مع المخالفين مهما كبر إجرامهم ، حيث يقول : (وَلاَ تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) تجد التأديب الصحيح فى الأسلوب الفصيح، والنصح الصريح

ولو كان فى المقام متسع لزدنا من إيراد الأوامر المكللة بفوائدها ، والمنهيات المتبعة بذكر مضارها . وهذا كله مما يجعل الحكم الشرعى سائغاً فى نظر العقل ، قريباً من القلب ، محبوباً للنفس . فكيف إذا علم أنه مع هذا مرضاة للرب ، موجب للسعادة الدائمة فى الحياة الأخرى (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) !

وأما متانة براهينه ، وإنتاج فوائده وثماره ، فسنفرد لها مقالا ثانياً ، وبالله التوفيق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

